الفصل الرابع

وتمضى الحياة برسول الله ﷺ وهو قائم على أمر ربه يبلغ رسالته، لايعبأ بما يلاقيه، والمؤمنون به، من قومه، حيث آذوه حاولوا التشكيك فى رسالته، فقد سألوه... أسئلة المتعنتين المتمردين، سألوه عن الروح، وعن الساعة، وعن أصحاب الكهف، وعن حقيقة عددهم، فكان أمر الله له.

الدعاء السادس

﴿ **وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا** ﴾ [الكهف: ٢٤] يقول المفسرون فى أسباب نزول هذه الآية قالت اليهود لقريش سلوا محمداً عن حقيقة الروح، وعن قصة أصحاب الكهف، وعن ذى القرنين، فاستجابت قريش لرغبة اليهود وتوجهوا إلى الرسول ﷺ بالسؤال، فردّ المصطفى عليهم قائلا «ائتونى غدا لأخبركم» ولم يستثن فأبطأ عليه الوحى حتى شق عليه ذلك، لأن قريشا كذبته وكان سؤالهم ذلك تعنتا فنزل قوله تعالى: ﴿ **وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا** ﴾[الكهف: ٢٣] وفى هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شئ ليفعله فى المستقبل أن يرد إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب، كما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ أنه قال: « قال سليمان ابن داود عليهما السلام لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفى رواية مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله، فقيل له - وفى رواية قال له الملك : قل إن شاء الله - فلم يقل فطاف بيهن فلم تلد منهن إلا امرأة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ : والذى نفسى بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته» «وفى رواية ولقاتلوا فى سبيل الله فرساناً أجمعين»

والاستثناء من النهى أى ولا تقولن لأجل شئ تعزم عليه إنى فاعله فيما يستقبل إلا بأن يشاء الله، إلا ملتبساً بمشيئته قائلاً إن شاء الله أولاً وقت أن يشاء

الله أن تقوله بمعنى أن يأذن الله لك فيه، ولا يجوز تعليقه بفاعل لأن استثناء اقتران المشيئة بالفعل غير سديد واستثناء اعتراضها دونه لا يناسب النهى ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ﴾ مشيئة ربك وقل إن شاء الله. كما روى أنه لما نزل قال عليه الصلاة والسلام: « إن شاء الله ». ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذ فرط منك نسيان لذلك ثم تذكرته ولو بعد سنة ما لم يحنث، ولذلك جوّز تأخير الاستثناء عنه. وعامة الفقهاء على خلافه لأنه لو صح ذلك لم يتقرر إقرار ولا طلاق ولا عتاق ولا بيع ولاشراء، ولم يعُلم صدق ولا كذب(١).

وليس فى الآية والخبر أن الاستثناء المتدارك به من القول السابق بل هو من مقدر مدلول به عليه، ويجوز أن يكون المعنى (واذكر ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء) مبالغة فى الحث عليه، أو اذكر ربك وعقابه إذا تركت بعض ما أمرك به ليبعثك على التدارك ،أو اذكره إذا اعتراك النسيان ليذكرك المنسى ﴿وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي﴾ يدلنى ﴿لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ لأقرب رشداً وأظهر دلالة على أنى نبى من نبأ أصحاب الكهف، وقد استجاب الله دعاؤه ﷺ لأعظم من ذلك حيث أخبره تعالى بقصص الأنبياء المتباعدة أيامهم، فأخبره بالغيوب والحوادث النازلة فى الأزمان المقبلة إلى قيام الساعة، فكان ذلك رشداً للناس، ودلالة قوية من الدلالات الناصعة المثبة لنبوته ﷺ لأنها قامت على الإخبار بالماضى الذى لم يكن لدى رسول الله ﷺ علم به إلا عن طريق رسالته. . . والله أعلم

ويشتد الأذى برسول الله فيرفع أكف الضراعة إلى مولاه قائلا بأمره :

الدعاء السابع

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾[الإسراء: ٨٠](٢).

---

(١) البيضاوى ٢/ ٩.

(٢) والميم قد تضم وتفتح فى المدخل والمخرج والإضافة فيهما للبيان أو من إضافة الموصوف لصفته.

أسباب النزول:

لمكان نزول هذه الآية دخل كبير فى فهم نصوصها: فقد ذهب الإمام البيضاوى[1] فى تفسيره إلى القول بأن سورة الإسراء كلها مكية.. وعلى هذا الرأى تكون هذه الآية نزلت قبل الهجرة وقبل دخول المصطفى المدينة وعليه فلا إشكال فيها...

ومع ملاحظة هذا الاعتبار نرى أن نظم هذه الآية لم يجر على الوجه المعتاد لأن خروجه ﷺ من مكة كان قبل دخوله المدينة.. ولعل القرآن سلك هذا المسلك لأن الدخول إلى المدينة هو المقصود من سياق الآية والمهتم بشأنه دون الخروج من مكة. وذهب بعض المفسرين إلى أن هذه الآية مدنية لقولهم بأن سورة الاسراء كلها مكية إلا ثمانى آيات آخرها هذه الآية ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي﴾ [الإسراء: ٨٠]

ومن القائلين بهذا الرأى الجلال السيوطى[2] غير أنه ذكر رأيه هذا بلفظ التحريض.. وهذا الرأى وإن كان ضعيفا إلا أنه يمكن قبوله على أن معنى الآية نزل بمكة ولفظها نزل بالمدينة...

وفى هذه الآية ثلاثة مباحث:

(١) ما المراد بالصدق؟

(٢) ما المراد بالدخول والخروج؟

(٣) ما المراد بالسلطان؟

لعل المراد بالصدق فى الآية هو رضى الله تعالى: أى أدخلنى دخولا مرضيا وأخرجنى خروجا مرضيا، لأن الصدق إذا وصف به غير العقلاء كما فى هذه الآية أريد به الرضا...

---

(١) تفسير البيضاوى ١/ ٥٦٣، ١/ ٥٨٠.

(٢) تفسير الجلالين جـ ١٥/ ٢٩٠.

ولقد ذهب سادتنا العلماء فى حقيقة المراد من الدخول والخروج مذاهب شتى نذكر منها ما يلى:

القبر ، الغار ، النبوة ، الطاعة ، المدينة.

والذى نميل إليه ونرجّحه هو كون الدخول والخروج عاما فى كل ما يدخله ﷺ ويلابسه من أمر أو مكان.. ولا يمنع من هذا ملابسه نزول الآية لخروج الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. كما أن تعميمها أفضل وأولى من تخصيصها، لأن الدخول والخروج اللذان نزلت الآية بسببهما يدخلان دخولا أوليا حيث يندرج الخاص فى العام..

أما حقيقة «السلطان» فقد ذهب المفسرون فيه إلى آراء أهمها ما يلى:

ذهب البعض إلى أن المراد من السلطان، هو الحجة البينة..

وذهب البعض إلى أن المراد من السلطان، هو الملك القوى الذى ينتصر به على الأعداء..

وذهب آخرون إلى أن المراد من السلطان هو العزّ الظاهر الذى يظهر بمقتضاه دين الله والإسلام..

ولذلك صح أن يكون نصيرا بمعنى الفاعل أو المفعول أى سلطانا ناصرا أو منصورا.. فالله تعالى يأمر نبيه محمدا أن يطلب منه أن يخرجه من مكة خروجا يرضاه وأن يدخله المدينة دخولا يرضاه وكذلك فى كل دخول وخروج، كما أمره أن يطلب منه القوة والعزة والسلطان وأن يمنحه النصر على الأعداء..

ونلاحظ أن هذه الآية قد سبقت بما يعتبر مؤشرا لظرف هذا الدعاء ومثله حيث يقول الله تعالى قبلها:

﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾

[الإسراء: ٧٨، ٧٩]

فالله يأمره أن يقيم الصلاة، وأن يقرأ القرآن، وأن يتهجد بالليل والناس نيام، ثم يأمره فى سياق أوامره هذه أن يدعوه بهذا الدعاء ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ ولعل فى هذا السياق إشارة إلهية لمحمد بأن هجرته ستكون فى خفاء ويكون معظم خطواته ليلا تسترا من أعين الرقباء والأعداء، كما أن فيه إشارة أخرى بأن جوف الليل هو أفضل الأوقات للمناجاة، كما أن فيه إشارة ثالثة إلى أن خير الأعمال ما كان مقرونا بالالتجاء إلى الله والتضرّع إليه والدعاء، وهذا تعليم منه ﷺ لأُمته.

وقد استجاب الله تعالى دعاءه هذا الذى علمه إياه، وأمره حيث وعده لينزعن ملك فارس والروم وغيرهما ويجعله له، ويظهر دينه على الأديان كلها لأن حزب الله هم الغالبون، وقد تمَّ كل ما وعد الله به رسوله ﷺ.

وتنتهى آيات الدعاء المحمدى المأمور بها من الله تعالى والمصدّرة بلفظ «قل» بهذا الدعاء:

الدعاء الثامن

﴿ وَقُل رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

لقد سبقت هذه الآية الكريمة بما يفيد تهديد المشركين الذين يدعون مع الله إلها آخر من غير دليل يستندون إليه فيما ذهبوا إليه من سخف القول وسوء الظن وقبح الاعتقاد وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

أى دع يا محمد أمر هؤلاء الذين يشركون بى من غير دليل ناصع ولا برهان قاطع ولاتعرهم اهتمامك، لأن حسابهم عندى ومرجعهم إلى وسوف يلقون الجزاء الرادع على جسارتهم هذه وكفرهم بى..

ثم أمره تعالى أن يطلب منه المغفرة والرحمة، وعساه أن يكون قد ألم بما لا

يليق بعصمته وبرسالته كفعله لغير الأفضل والأولى اجتهادا منه مثلما عَبسَ فى وجه عبد الله بن أم مكتوم. . .

كما يطلب منه جل عُلاه أن يطلب المغفرة والرحمة لسائر المؤمنين سواء كانوا مذنبين أم لا، لإطلاق المغفرة والرحمة من المفعول ونلاحظ فى هذه الآية أمورا:

أولا : أنه ذكر فيها لفظ «الرب» الدال على الربوبية والتربية المقتضيان للمغفرة والرحمة والعفو والشفقة. .

ثانيا: هذا الأمر الإلهى لنبيه محمد بطلب المغفرة والرحمة يؤذن بمكانتهما عند الله تعالى. . كما يؤذن أيضا بحاجة البشرية القصوى إليهما. . كما يتضح أنهما من الأمور الدينية الهامة خصوصا وأن المأمور بهما هو المغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فكيف بمن عداه؟

ثالثا: غالبا ما تقترن الرحمة بالمغفرة ففى سورة الحجر ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾**﴾ [الحجر: ٤٩]، وفى سورة الأنعام ﴿**إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الأنعام: ١٦٥] ولكن ما العلة لاقترانهما؟. . وما الحكمة من تقديم المغفرة على الرحمة؟ نوجز الإجابة عن هذين الاستفسارين فيما يلى:

أولا: لعل اقترانهما مظهر من مظاهر فضل الله تعالى على البشرية وخاصة من آمن بالله منهم إذ الناس بين مطيع ومذنب ولا ثالث لهما، فالمغفرة خاصة بالمذنب والرحمة تشمله والمطيع معا. .

فذكر المغفرة مع الرحمة يدل على سعة شفقة الله بعباده ومدى استيعاب مغفرته ورحمته لكل الخلق، ومن أجل هذا اقترنتا ليطمئن الله تعالى عباده على مستقبلهم ويخبرهم بأن باب التوبة مفتوح دائما فعليهم أن يجلوه فور اقترافهم ما يوجب سخطه عليهم، وعلى المؤمنين الصالحين أن يطلبوا الرحمة فالشقى هو المحروم طلبها ولو ادعى الولاية والزهد. .

ثانيا: أن المغفرة فيها تخلية من المعاصى والذنوب لذا قُدِّمت. . والرحمة

فيها تحلية بالنعم المسداة للعباد فلذلك أُخرَّت - كما أن تقديم المغفرة لخصوصها وتأخير الرحمة لعمومها، لأن بين الغفران والرحمة عموم وخصوص وجهى، يجتمعا فى المؤمن العاصى حيث يغفر الله له ذلته ثم يمن عليه من نعمائه ما به يكون مرحوما..

وينفرد الغفران فى المذنب العاصى.. وتنفرد الرحمة فى المؤمن غير المذنب.. فالمغفرة عفو وصفح عن المذنب وستر له وعدم المؤاخذة عليه، ورفع للعقوبة عن مرتكبه.. والرحمة إيصال للخير والإحسان إلى جميع العباد والمخلوقات العاقلة وغير العاقلة.. ولعل التذييل بقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

لإشعار الإنسان بأن رحمة الله قريب من المحسنين وغيرهم وأنها وسعت كل شىء من إنسان وحيوان وطير وغير ذلك..

كما أن فيها تعليما لمن يتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء أنه ينبغى عليهم أن يزينوا دعاءهم بالثناء على الله تعالى كلما سنحت الظروف سواء كان هذا الثناء فى صدر الدعاء أو وسطه أو آخره ليكون الدعاء أولى عند الله تعالى بالقبول..

ولعل التذييل أيضاً بقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] لتقع المقابلة بين أول السورة وآخرها حيث أثبت الله تعالى فى أول السورة الفلاح والفوز لعباده المؤمنين.. ونفى الله تعالى فى آخر السورة الفلاح والفوز عن المشركين الكافرين..

وهذا النهج فى صدر السورة وعجزها يحمل المؤمنين على التحلّى والالتزام بالصفات التى استوجبت فلاحهم ونجاحهم وعزهم ونصرهم..

وليتجنبوا أيضا الصفات التى استوجبت عدم فلاح الكافرين الملحدين.. والمتتبع لآيات الدعاء فى القرآن الكريم خصوصا ما ورد منها على ألسنة الرسل والصالحين، يجدها على هذا النمط من مزج المدح والثناء والتحميد والتقديس والتكبير بالدعاء سواء كان بين يديه أو فى وسطه أو آخره وذلك ليكون عند الله مقبولا مرضيا..